ISSN: 2710-3390

العوامل المؤثرة في تطور العمارة العثمانية في بلاد الشام خلال الفترة من1550-1800م (حلب ودمشق أنموذجاً)

د . حفظ الله يحيى الأحمدي
ا. د .عبد الرحمن محمد جيلان

Factors influencing the development of Ottoman construction in Levant during the period from 1550-1800 Aleppo and Damascus as a Model

Dr. Higzhallah Yahya Yusuf Al-Ahmadi, Professor of Modern and Contemporary History
Prof. Abd al-Rahman Mohammad Jailan, Professor of Islamic History
Faculty of Education - Al Mahwit University.

الملخص Abstract

اكتسبت بلاد الشام أهمية كبيرة في استراتيجية الدول ذات التوجه التوسعي نتيجة لموقعها الاستراتيجي على البحر المتوسط ومثلت حلقة وصل بين قارات أسيا وأروبا وأفريقيا ، الأمر الذي أولته الدولة العثمانية أهمية بالغة في استراتيجيتها، ومنفذ بري نحو المقدسات الإسلامية في الجزيرة العربية وإلى الشمال الافريقي بالإضافة إلى كونها مركزاً مهماً للتجارة في هذه الحقبة الزمنية .

وتكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تتناول العوامل المؤثرة في التطور العمراني الذي يعد من أهم معالم الحكم العثماني لبلاد الشام في فترة الدراسة .

وتكمن إشكالية الدراسة بمحدودية المصادر والمراجع في الكتابة التاريخية التي تتناول العمارة بمختلف أنواعها والعوامل المؤثرة فيها وقد اقتصرت عملية الحصول على المعلومات على كتابات الجغرافيين أو مشاهداتهم والبلدانيين من الرحالة وهي كتابات لا تتطرق إلى شمولية التفاصيل العمرانية .

ولذلك عمدت الدراسة إلى سرد ووصف تفاصيل أهم المعالم العمرانية والعوامل المؤثرة في تطورها في الفترة من 1850 – 1950 م .

وأهمها العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية وقد مثلت عملية تشييد المؤسسات الحكومية والدينية والعلمية والاجتماعية أهم مجالات اهتمام سلاطين بني عثمان وولاتهم، وبالغو في العناية بها وعملوا على ديموميتها فأوقفوا الأوقاف لها ورفدوها بمصادر التمويل المحلي والمركزي .

وخلصت الدراسة إلى أن عامل الاستقرار السياسي والاقتصادي والاستثماري والاجتماعي ونمو الحركة التجارية والصناعية قد جلبت رؤوس أموال مثلت رافداً رئيساً في عملية الازدهار العمراني مما كان له الأثر الواضح في الازدهار العمراني في بلاد الشام/بان حكم الدولة العثمانية.

The Levant has gained a vital position in light of the strategy of the expansionist-oriented countries due to its strategic location on the Mediterranean Sea, representing a link between Asia, Europe and Africa continents. Therefore, the Ottoman Empire has highly considered that with its strategy, taking into account its key terrestrial access to the Islamic holy sites over the peninsula to the North Africa, in addition to being a vital trading in this time era.

The significance of this study lies in addressing the factors influencing the construction development, considering it one of the most important features of the Ottoman rule over the Levant during this period of time.

The problem of the study is represented by the limitation of sources and references of the historical writing dealt with construction, in all kinds and the influencing factors. So, the process of obtaining information was limited to the writings of geographers or their sightings and backpackers, as these writings do not address the comprehensiveness of constitution

details.

Therefore, this study proceeded to list the details description of the most vital urban landmarks and the factors influencing their development during the period from 1850 – 1950. Among these factors are political, economic and social factors. The process of constructing governmental, religious, scientific and social institutions represented the most important areas of concern for the sultans of Bani Othman and their rulers. They exaggerated their concern, so they worked to ensure its permanence through endowing endowments for it, providing sources of local and central financing.

Thus, the study concluded that the factor of political, economic, investment and social stability and the growth of commercial and industrial movement could bring capital that represented a major tributary in process of construction prosperity. All this had a clear impact on construction boom over the Levant during the rule of the Ottoman Empire.

Received: 24/12 /2022
Accepted: 30/12 /2022

Address corresponding:. Dr. Higzhallah Yahya Yusuf Al-Ahmadi, Professor of Modern and Contemporary History Prof. Abd al-Rahman Mohammad Jailan, Professor of Islamic History Faculty of Education - Al Mahwit University.

مقدمة:

كتسبت بلاد الشام أهمية كبيرة في استراتيجية الدول ذات التوجه التوسعي نتيجة لموقعها الاستراتيجي على البحر المتوسط ومثلت حلقة وصل بين قارات أسيا وأروبا وأفريقيا ، الأمر الذي أولته الدولة العثمانية أهمية بالغة في استراتيجيتها، ومنفذ بري نحو المقدسات الإسلامية في الجزيرة العربية حتى اليمن جنوبا ومن وسط اسيا شرقا إلى المغرب العربي غربا بالإضافة إلى كونها مركزاً مهماً للتجارة في هذه الحقبة الزمنية .

وتكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تتناول العوامل المؤثرة في التطور العمراني الذي يعد من أهم معالم الحكم العثماني لبلاد الشام في فترة الدراسة .

وتتمثل إشكالية الدراسة بمحدودية المصادر والمراجع في الكتابة التاريخية التي تتناول العمارة بمختلف أنواعها والعوامل المؤثرة فيها وقد اقتصرت عملية الحصول على المعلومات على كتابات الجغرافيين أو مشاهداتهم والبلدانيين من الرحالة وهي كتابات لا تتطرق إلى شمولية التفاصيل العمرانية .

ولذلك عمدت الدراسة إلى سرد ووصف تفاصيل أهم المعالم العمرانية والعوامل المؤثرة في تطورها في الفترة من 1850 – 1950 م .

وقد قسمت الدراسة الى محورين . الاول اشتمل على العوامل السياسية التي تنتج عن المتغيرات الطارئة على بلاد الشام ،والمتمثلة بتقلب الدول والحكام وتداخلها بين العوامل المحلية و الاقليمية والدولية و دائما ما تقوم هذه الدول بالتأثير في التشييد العمراني لذا قامت الدراسة بتناول مختلف الانشطة العمرانية المرتبطة بهذه العوامل وأهمها مؤسسات الدولة المتمثلة بالمؤسسات الخدمية من تكايا وقصور واسواق وشبكات المياه وبناء المساجد ودور العلم ومحطات على طريق الحج والقوافل التجارية وغيرها من مظاهر سيادة ورمزية الدولة .

اما المحور الثاني فقد اشتمل على العوامل الاجتماعية التي لعبت ادوار هامة في التشييد العمراني من خلال حركة المجتمع وتعاظم الانشطة الاقتصادية والتجارية الهجرة من مختلف ارجاء الامبراطورية العثمانية واستقرار اعداد كبيرة في بلاد الشام الامر الذي ضاعف عدد السكان وادى الى التوسع العمراني في مدينتي حلب ودمشق .

وخلصت الدراسة إلى أن عامل الاستقرار السياسي والاقتصادي والاستثماري والاجتماعي ونمو الحركة التجارية والصناعية قد جلبت رؤوس أموال مثلت رافداً رئيساً في عملية الازدهار العمراني مما كان له الأثر الواضح في الازدهار العمراني في بلاد الشام/بان حكم الدولة العثمانية.

ويمكن توضيح ذلك من خلال المحاور الاتية:

المحور الأول –العوامل السياسية:

والمقصودُ بالعوامل السياسية هي تلك المتغيرات الطارئة على بلاد الشام، والمتمثلة بتقلب الدول والحكام وتداخلها بين العوامل المحلية والإقليمية والدولية – إن جاز التعبير– فلذا كانت هذه المتغيرات السياسية كفيلة بالتأثير في التشييد العمراني وتطوره. ونعرض لذلك من خلال بيان اهتمام الدولة(بالمؤسسات العامة، التكايا، الأسواق، المساجد، المياه، تخطيط المدن، الاهتمام بالأمن وغيرها..).

وشهدت الشام في أوائل القرن السادس عشر الميلادي تغيرات كبيرة في بنيتها السياسية فأصبحت منذ عام 1516م تحت نفوذ دولة عالمية كبيرة هي الدولة العثمانية بعد سقوط دولة المماليك، ومن الطبيعي أن تستفيد بلاد الشام ذات الموقع المهم جداً للدولة العثمانية والتي أصبحت تتوسط أملاكها الممتدة من اليمن في أقصى جنوب جزيرة العرب إلى البلقان في أوربا ومن وسط آسيا شرقاً إلى المغرب العربي غرباً.[1]ولذا استفادت بلاد الشام من الإمكانيات الهائلة للدولة العثمانية وخاصة التجارية منها؛ لأن بلاد الشام أصبحت أهم مراكز الدولة العثمانية التجارية، وقد أثر هذا الازدهار في الجوانب التجارية على الحركة العمرانية، فازدهرت وتوسعت بحسب متطلبات الأسواق والسكن، وقامت المحطات على طرق القوافل التجارية، وكانت مدينتا دمشق وحلب من أعظم مدن الشام ازدهاراً.

وقد اهتم سلاطين بني عثمان وولاتهم ببناء المؤسسات الحكومية والدينية والعلمية وبالغوا في العناية بها وعملوا على ديمومتها، فأوقفوا الأوقاف من أجل ذلك، واعتنوا بمصادر التمويل ومن أهم تلك المصادر بناء الأسواق وتنظيم تجارتها،ولم يقتصر الجهد في هذا الجانب على السلطنة وعمالها بل شاركت جموع أهل الشام في ذلك وكانت المنافسة على أشدها وخاصة في الأعمال الخيرية .ومن الملاحظ أن هناك شحة في المعلومات عن العمارة بمختلف أنواعها في كتب التاريخ العام، وقد اقتصرت المهمة في هذا المجال على كتب الجغرافيا أو مشاهدات الجغرافيين والبلدانيين من الرحالة، وكانت هذه المعلومات وبصفة عامة لا تتطرق إلى التفاصيل إلا في بعض الجوانب من العمران ،وقد نالت بعض مدن الشام النصيب الأوفر لدى من كتبوا عنها،ومن تلك المدن دمشق وحلب – وعليهما نخصص الدراسة – فوصفوها ووصفوا مبانيها وأحوالها، نتيجة لأهميتها التجارية، وفيما يأتي

---

[1]) ابن طولون ،شمس الدين محمد بن على بن أحمد الصالحي، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، بعناية خليل منصور،دار الكتب العلمية – بيروت ، ص 378– د/حسن الضيقة ،الدولة العثمانية الثقافة والمجتمع والسلطة،ط/أولى،1997م،دار المنتخب العربي، بيروت – لبنان،ص17.

بيان عن نماذج بنائها وأسباب ازدهارها:

أولاً– مؤسسات الدولة:

إن تطور عمارة الشام في مختلف الحقب الزمنية لم يكن صدفة، بل كان نتاجاً للتأثيرات والتقلبات السياسية والثقافية، وتأثيرات الحضارات التي تعاقبت على حكمها،وكذا تأثيرات الشعوب المجاورة فنقلت إليها بعض فنون البنيان، وخاصة فيما يتعلق بمؤسسات الدولة، وممّا ركزت عليه الإدارات المحلية التي قامت في الشام من مؤسسات ترتبط بها، فسبغتها بأمجادها وتركت عليها بصمات فنها وعظمة ازدهارها، وكانت الدولة العثمانية واحدة من تلك الدول التي أبقت على آثار فنها المعماري في الشام وشواهده مازالت ظاهرة للعيان، ومنها:

1– المؤسسات الخدمية:

لم تحط الدولة العثمانية رحالها في بلاد الشام حتى باشرت برعاية العامة والطبقة الفقيرة منها، وبذلت من أجل ذلك الأموال والجهد، ومن أهم مؤسساتها الخدمية التي لفتت بها أنظار الرعية التكية، وهي مؤسسة خدمية تقوم برعاية شئون الفقراء والصوفية والنزلاء الغرباء والحجاج، ومع أن هذه المؤسسة كانت في طابعها خدمي إلا أن الدولة العثمانية اهتمت ببنائها وأصبحت من معالمها الرائعة، وحملت أصالة الفن المعماري العثماني، ويظهر أن إمبراطورية بني عثمان قصدت من ذلك لفت الأنظار إليها، وكسب تأييد عامة الشعوب الإسلامية التي تقع في إطار سيطرتها، ومن أبرز التكايا في بلاد الشام :

أ– التكية السليمانية في دمشق:

سميت نسبة إلى السلطان سليمان القانوني الذي أمر ببنائها عام 1554م في الموضع الذي كان يقوم عليه قصر الظاهر بيبرس المعروف باسم قصر الأبلق في مدينة دمشق وهي من تصميم المعماري التركي معمار سنان، أشهر معماري عثماني. وأشرف على بنائها المهندس ملا آغا .وانتهى من بنائها سنة 1559م في عهد الوالي خضر باشا، أما المدرسة الملحقة بها فتم بناؤها سنة 1566م في عهد الوالي لالا مصطفى باشا.

وكانت التكية السليمانية مثالاً رائعاً للعمارة في العصر العثماني، وهي من أبنية دمشق التاريخية، وأبرز ما يميز طراز التكية السليمانية مئذنتاها النحيلتان اللتان تشبّهان المسلّتين أو قلمي الرصاص لشدة نحولهما، وهو طراز لم يكن مألوفاً في دمشق حتى تلك الحقبة، ، وقد اتخذ في إنشائها التصميم العثماني في القباب والأروقة. وتتألف التكية من صحن واسع تتوسطه بركة كبيرة مستطيلة الشكل، وتتوزع حول الصحن مجموعة من المباني، ويحيط بمباني التكية سور حجري، وللتكية ثلاثة أبواب غربي وشرقي وشمالي، أما الباب الشمالي فتتقدمه قبة صغيرة

محمولة على أربعة أعمدة وهناك مسجد في جنوب الصحن، وهو مربع الشكل طول ضلعه 16م، تغطي سقفه قبة كبيرة هي أنموذج عام للقباب العثمانية، لها رقبة متعددة النوافذ وطاسة نصف كروية مصفحة بالرصاص، وفي جدران الحرم شبابيك مطلة على الحدائق، ونوافذ القبة المتعددة.وفي شرقي الصحن وغربه مساكن الدراويش، ولكل مجموعة منها رواق يتألف سقفه من قباب محمولة على أعمدة، فيه غرف، كل غرفة منها مسقوفة بقبة، وفي كل جناح ست غرف مربعة الشكل، طول ضلعها سبعة أمتار،ويقوم في شمال الصحن جناح فيه المخازن والمطابخ، وقاعتان واسعتان طول كل منهما أربعون متراً، ويتوسط القاعتين الكبيرتين بناء مؤلف من تسع غرف يتقدمه رواق محمول على أعمدة .ويستخدم بناء التكية السليمانية حاليا متحفاً حربياً[2].

ب- التكية المرادية:

تقع تكية مراد باشا بمحلة السويقة ضمن منطقة الميدان خارج أسوار مدينة دمشق القديمة،وتعتبر من أجمل المباني العثمانية الأثرية القائمة حتى الآن بحي السويقة على طريق الميدان في دمشق ، و بدأ مراد باشا في تشييدها عام 1568م ، وانتهى من بنائها في عام1573م وعرفت التكية بعدة أسماء منها:

- تكية جامع مراد باشا:نسبة لمشيد هذه التكية والي الشام العثماني مراد باشا في زمن السلطان العثماني سليم الثاني ابن السلطان سليمان خان القانوني.
- تكية جامع النقشبندي:نسبة للطريقة الصوفية المعروفة (النقشبندية).جامع المرادية : نسبة لمؤسسها مراد باشا الوالي العثماني[3].

2- قصر العظم :

يعتبر قصر العظم من أهم وأجمل القصور في الفترة العثمانية أمر ببنائه والي دمشق أسعد باشا العظم عام 1749م ليكون داراً لسكناه بعد ولايته على الشام، ويقع القصر وسط مدينة دمشق القديمة بين الجامع الأموي شمالاً وسوق مدحت باشا جنوبا بالقرب من البزورية، ويمتد على مساحة(5500 م2) يعتبر هذا البناء من أهم المباني

---

[2]) نقلاً عن مقالة موقع نسيم الشام – مقالة جريدة الوسط الكويتية في 2012/8/17م والتكية السليمانية المعرفة .marefa.org

[3]) نقلاً عن مقالة بموقع إدلب الأربعاء 10 آذار 2010م.

التاريخية الضخمة الموجودة في مدينة دمشق القديمة، وواحد من أفضل نماذج العمارة المبكرة في دمشق للحقبة العثمانية، وقد اختار أسعد باشا العظم موقع هذا القصر بعناية فائقة ليجسد المكانة والقوة السياسية والاجتماعية لقوة الإمبراطورية التي يمثلها،فجعله قريباً من المسجد الأموي، وهذه كانت عادة الحكام في تلك الحقبة، لأن أغلب الحكام اهتمت باتخاذ مواقع للبنايات العامة في المناطق المزدحمة بالسكان، وذلك لخدمة المجتمع، ولذا كان موقع القصر في وسط المدينة القديمة ذا أهمية سياسية واقتصادية،وتمثلت الأهمية السياسية أنه قد جاور أكبر رمز ديني في دمشق المتمثل بالجامع الأموي،وأما في الجانب الاقتصادي فقد جاور هذا القصر سوقين من الأسواق الرئيسة في المدينة القديمة، حيث يتمركز في نقطة تقاطع مهمة بين طرق القوافل المارة بمدينة دمشق القديمة، بين الجامع الأموي وبين الشارع المستقيم الذي يدعى في يومنا هذا شارع مدحت باشا. وتذكر المصادر التاريخية أن عدد من عمل في انجاز هذا المشروع قد بلغ (800)عامل من مختلف الحرف، وأن الزمن الذي استغرقه بناء القصر عامان،وقد تم تقسيمه من الداخل بشكل رائع يبرهن على التطور الذي بلغته بلاد الشام في هذه الحقبة، فقد احتوى على عدد من القاعات متعددة الأغراض، منها قاعات الاستقبال ، و المعيشة ، والخدم ،إضافة إلى الحمام والمرآب . كما أقيمت به جميع الخدمات العامة التي تدل على الرخاء التي بلغته دمشق في تلك الحقبة الزمنية من حكم الدولة العثمانية.

ولم تكن تلك القصور التي بناها ولاة الدولة العثمانية في مدن الشام على نفس الطرز أو بنفس التأثير الذي لعبه قصر العظم في دمشق القديمة؛ لأنها كانت غير ثابتة في منطقة بعينها فقد عمد الحكام إلى اتخاذ مناطق بعيدة نسبياً من الأهالي طمعاً في تحقيق الأمن، والرفاهية والبعد عن مراقبة السكان وتجنيب الحاشية الاحتكاك بالرعية فكانت اغلب قصور الحكام والولاة تبنى في أطراف المدن لتلك الاعتبارات[4].

ثانياً– الأسواق التجارية:

ازدهرت التجارة في بلاد الشام نتيجة للاستقرار بشكل ملحوظ؛لأن اتساع الدولة العثمانية قد جعل التنوع الاقتصادي من أبرز سماتها،ونتيجة للموقع المتميز لبلاد الشام فقد تجمعت دول عديدة لتمرير تجارتها المتنوعة في أملاك الدولة العثمانية ومثلت تلك التبادلات التجارية عنصراً فاعلاً في التجارة الدولية، وكانت أبرز مدن الشام وأكثرها تألقاً في خضم هذا التنافس مدينتي حلب ودمشق، وكانت الأولى أكثرها شهرة، فكانت تصلها أغلب البضائع التي تساق إلى حواضر الإمبراطورية، ومنها المنسوجات والبن والحرير والتوابل وغيرها من صنوف

4) نقلاً عن المديرية العامة للآثار والمتاحف دمشق.

الصناعات والمنتجات[5].

ونتيجة للازدهار التجاري فقد تطلب ذلك إقامة الأسواق والقيساريات، وخاصة في المدن ذات النشاط العالي في جوانبها التجارية من أجل استقبال البضائع والتبادل التجاري والتخزين، ومن أبرز المشروعات التجارية التي أقامها ولاة الدولة العثمانية في حلب ودمشق،والتي لعبت دوراً بارزاً في تنمية المدينتين في النواحي الاقتصادية والمعمارية ما يلي :

أولاً– أسواق حلب:

1- قام أبشير باشا في عام 1653م ببناء أربع قيساريات وخان والعديد من الحوانيت، وأقيمت في الضاحية الشمالية ورش النسيج والسباغة، ونتيجة للتوسع في هذه المتاجر والورش فقد ازداد عدد السكان في حلب، فكان لابد من مواكبة هذه الزيادة بزيادة مساحة المدينة العمرانية وإقامة أحياء جديدة، وخاصة في المناطق التي توسعت فيها الأنشطة التجارية والصناعية، ومن الملاحظ أن تغيراً طرأ على مدينة حلب بعد قيام أبشير باشا بالتوسع في البنايات ذات الطابع التجاري ونتج عن ذلك ما يأتي:

أ- توسعت حلب في اتجاه الشمال الشرقي،فأنشئت الضاحية الشمالية الشرقية للمدينة وامتدت المشروعات التجارية في اتجاه الشرق[6].

ب- بناء وحدات متخصصة للصنا عات،ومنها المسبغة التي شيدت على حافة نهر قويق، التي بلغت مساحتها (6800م2) بطول(170متراً) وعرض(40متراً) وبها(53غرفة) في الطابق الأرضي و(58غرفة)في الطابق العلوي ومزودة بحمام مخصص للدباغين ومسجد يقع بالقرب منها[7].

ت- توسعت المباني السكنية في اتجاه الضاحية الشمالية الشرقية،وأقيمت عدد من المساكن لأرباب الحرف.

ث- زادت حركة القوافل التجارية مما دفع الحكومة والسكان إلى التوجه نحو التوسع في المباني الخدمية لمواكبة هذه الزيادة .

ج- نمو سكان الضواحي في حلب،فقد ارتفع عدد سكان الضواحي من (4000نسمة)في عام 1537م إلى (18743نسمة)في عام 1683م.وبلغت نسبة الزيادة في عدد السكان بحولي 83% وبذلك شكلت الضواحي أكثر مناطق حلب جذباً للسكان بفعل النمو الاقتصادي والعمراني،ولذا بلغ عدد سكان الضواحي في عام 1683م ثلثي سكان حلب،ولم يكن يتجاوز نصف عدد السكان في العصر

---

[5]) اندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني،ترجمة لطيف فرج،ط/الأولى،دار الفكر ،القاهرة،ص36.

[6]) المصدر نفسه،150.

[7]) المصدر نفسه،199.

المملوكي،وزادت مساحتها(من 91هكتاراً) في أواخر العصر المملوكي إلى(200,5هكتار)ومن هنا يتضح أن النمو العمراني قد نما أكثر من النصف وكذا واكب هذا النمو الزيادة السكان[8]

ح- ولم تفقد المدينة القديمة في حلب حيويتها نتيجة لتوسع الضواحي وازدهارها،وإنما بقيت تمثل نبض القوة الاقتصادية للمدينة طوال الحكم العثماني؛فقد احتوى وسط المدينة على(21سوقاً)من بين (56سوقاً)في حلب كلها و(19قيسارية)من بين (53قيسارية).

وكانت عمارة الأسواق تختلف في نسقها من سوق إلى آخر.وشكل وسط مدينة دمشق نفس الأهمية،فقد احتوى وسط المدينة على(17سوقاً) من بين(44سوقاً)في دمشق كلها، و(27خاناً) من بين(57 خاناً) [9].

وكانت أكبر القيساريات اتساعاً قيساريات حلب،فقد بلغت مساحة خان الجمرك(6167م2)وبلغ متوسط(19خاناً) في وسط المدينة(2282م2) وكانت الخانات مباني رائعة، وهي أكبر المباني التجارية التي شيدت في حلب في العصر العثماني، والظاهر أن التكلفة كانت باهظة جداً لأن من وصف تلك المباني يدل على أن الإنفاق عليها كان كبيراً، وكانت القيساريات دلالة على عظمة الأنشطة التجارية للمدن الشامية أبان الحكم العثماني وقد تحدثت أغلب الدراسات أن بمدينة حلب ما يقرب من(100 خان)وفي دمشق(57خاناً) وشكلت تلك المباني ذات المنافع المتعددة للسكان قيمة معمارية و فنية رائعة[10].

خان قورت بك بمدينة حلب يعتبر من أبرز المنشآت العثمانية الباقية في مدينة حلب، بأبعاده الرحبة وطرازه المعماري المتميز، وبداخله سوق مربع الشكل، كان هدف السوق يقوم بخدمة نزلاء الخان،ومن أبرز ما تميز به من طراز معماري ممره الرئيسي الذي تعلوه القباب وبه مدخل جميل رائع البناء يوصل هذا المدخل إلى فناء الخان الذي يوجد به حوض ماء كبير،.وبه مخازن في الأدوار الأرضية ويوجد به غرف لسكنى التجار[11].

خ- خان الجمرك : يحتوى هذا الخان على قيسارية بطول(79متراً) وعرض(65متراً)،ويوجد أيضاً بالخان(52مخزناً) في الدور الأرضي و (77غرفة) في الطابق العلوي، ويوجد بفنائه مسجد صغير وحوض للماء، ويعتبر هذا الخان أحد منجزات الفن المعماري الحلبي في العصر العثماني[12].

---

[8]) المصدر نفسه،ص151.

[9]) المصدر نفسه،177.

[10]) المصدر نفسه،187.

[11]) نقلاً عن موقع خانات حلب.

[12]) أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ،190.

ولذا توسعت مساحة الأسواق في مدينة حلب فقد بلغت مساحتها في المدينة القديمة بالقرب من الجامع (5هكتارات)في نهاية العهد المملوكي،وبعد السيطرة العثمانية توسع مساحة هذا السوق فبلغ أكثر من (10هكتارات). فكانت الزيادة نتيجة للنشاط والازدهار التجاري 100%[13].

ثانياً أسواق دمشق:

خان أسعد باشا العظم يقع في دمشق القديمة في وسط سوق البزورية أحد الأسواق التراثية في دمشق،بناه الوالي أسعد باشا العظم سنة 1753م أي بعد أربع سنوات من بناء قصر العظم الشهير كأجمل بناء إسلامي، وهو ملك خاص لوالي دمشق أسعد باشا العظم،ثم انتقلت ملكيته فيما بعد إلى عدد من التجار، وتبلغ مساحة هذا الخان(2500م2) وطوله(52متراً)وعرضه(46متراً) ويمتاز بواجهة عريضة في وسطها بوابة ضخمة وفي واجهته الجنوبية الغربية(31 مخزناً). وبه دهليز عريض يستوعب غرفتين للحراسة ومصعدي الدرجتين، وفي وسط الباحة بركة مثمنة. وجدران الباحة التي تشكل واجهات الغرف مبنية بالحجر الأسود والأبيض. ويتكون من طابقين الطابق السفلي يحوي(21 مخزناً) و الطابق العلوي:يتألف من أروقة مشرفة على الباحة، وخلفها(45 غرفة)، وجناح للخدمات[14] . وجميع الغرف مغطاة بقباب صغيرة، وذات أبواب ونوافذ ما زالت تحتفظ بأصالتها، ولا مثيل لتنظيم هذا الخان في بلاد الشام، وبرزت فيه تفاصيل العمارة العثمانية وبشكل ملفت للنظر، ويظهر أن المغزى من تشييد هذا الخان لم يكن اقتصادياً فحسب بل كانت هناك اعتبارات أخرى قد دفعت الباشا إلى تشيده منها:

- الحصول على أموال وفيرة لتسيير شئون أوقافه .
- لفت الأنظار إليه وإلى قوته وقوة الإمبراطورية العثمانية التي كان يمثلها[15].

1- خان سليمان باشا شيدعام 1732م،وقد سقف بقبتين كبيرتين مرتفعتين فوق مثلث كروي بين العقود.

2- وخان السفرجلانية المشيد عام 1757م،الذي زود بثلاث قباب.

3- وخان الصرانية والمشيد في نفس الفترة السابقة فقد زود بقبتين[16].

وماثلت دمشق مدينة حلب في التوسع في مساحة الأسواق فقد بلغت مساحة الأسواق، (8,7 هكتار)وامتدت المساحة من الشارع الروماني القديم في الجنوب إلى الجامع الكبير في الشمال الشرقي إلى القلعة

---

[13]) المصدر نفسه،38.

[14]) د/عبير عرقاوي،التطور التاريخي لخان أسعد باشا العظم، مجلة دمشق للعلوم الهندسية،المجلد الثاني عشر ،العدد الأول،2006م،ص375.

[15]) أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ،192.

[16]) المصدر نفسه،191.

في الشمال الغربي،وكانت أسواق دمشق أكثر مناعة من سابقتها المعتمدة في حلب؛إذ أن السلطات القائمة على المدينة لعبت دوراً في تطوير هذا النوع من البناء وذلك بقيامها بإدخال بعض التعديلات عليها،فقد شيدت في دمشق قيساريات مسقوفة تعلوها القباب،وهذا يدل على أن الفن المعماري العثماني المتميز بالقباب قد أخذت به معظم المباني العامة في دمشق وأصبح تأثيره واضحاً على المنشآت ذات الطابع الاقتصادي بالإضافة إلى المباني الدينية[17].

ثالثاً– المؤثرات الاقتصادية في التوسع المعماري:

ونتيجة للتوسع في الجانب الاقتصادي لوحظ التطور في المدن الكبرى بالشام من خلال الزيادة في مساحة تلك المدن،فمثلاً مدينة حلب زادت مساحتها من (238هكتاراً) في بداية القرن السادس عشر إلى(367هكتاراً) في بداية القرن التاسع عشر،وأما دمشق فقد توسعت مساحتها من(212هكتاراً) إلى حوالي(313هكتاراً) في نفس الفترة ، أي: أن الازدهار العمراني في هذه الفترة بلغ مداه إذ تقدر نسبة الزيادة في المساحة لكلتا المدينتين ب(50%)،ويدل هذا التوسع على ازدياد عدد السكان وتوسع المشاريع التنموية المرافقة لهذه الزيادة. ونتج عن هذا التوسع العمراني في المدينتين:

- زيادة في عدد السكان فقد ارتفع سكان حلب بعد السيطرة العثمانية (من80 ألفاً) في عام 1537م إلى (115ألفاً) في عام 1683م ثم ازداد هذا العدد إلى(120ألف) في عام 1800م. أي أن نسبة الزيادة في سكان حلب بلغ(50%)،وأما مدينة دمشق فقد زاد عدد سكانها في الفترة نفسها من(52ألفاً)إلى(90 ألفاً) [18].
- أصبحت حلب أسرع مدن الشام في النمو العمراني،إذ تشير أغلب الدراسات التي تناولتها إلى أنها أكثر مدن الشام نمواً، وتسبب هذا النمو المتسارع إلى جذب أعداد هائلة من السكان،ونتيجة لذلك فقد دفعت زيادة السكان بأسعار العقارات إلى أعلى معدلاتها.
- تدخلت الحكومة المحلية لمعالجة أزمة السكن،فقامت بنقل المعامل الصناعية والمدابغ إلى خارج المدينة، وكان ذلك في سنة 1600م وقصدت الحكومة المحلية من وراء هذا العمل توفير المساكن للسكان بعد النمو الملحوظ في عدد السكان[19] .

---

[17]) المصدر نفسه،190.

[18]) المصدر نفسه،45، 46.

[19]) المصدر نفسه، 48.

- التوسع خارج أسوار مدينة حلب من أجل مواكبة التطور السكاني،ولذا شجعت الحكومات المحلية إقامة أحياء جديدة خارج الأسوار عرف سكانها بسكان الضواحي.
- عملت الإدارة المحلية في حلب على تخطيط الشوارع الرئيسية وعلى الأرجح أن تلك المخططات كانت في بداية القرن السابع عشر،وتم الاستفادة من كل المساحات داخل المدينة،فتم إنشاء المباني وشق الطرق وبشكل منتظم،وكانت الضواحي قد شهدت تنظيماً دقيقاً،فقسمت الأراضي بشكل هندسي بالغ الدقة،وكان حي الجديدة هي الأكثر بروزاً في التخطيط الدقيق،فقد تقسمت الأرض إلى أربع قطعات تبلغ مساحة كل قطعة(400م2) .ولا يستبعد أن السلطنة العثمانية كانت تدفع وبقوة الإدارة المحلية في حلب إلى العناية بهذه المدينة،وكان الهدف في الأساس تنشيطها كمركز تجاري و إدخال عناصر سكانية جديدة إلى المدينة وضواحيها[20].

وعلى الجملة يمكن القول بأن النمو العمراني وفي نطاقه الواسع قد نال الاهتمام الواسع من الإدارة المحلية وسلطة الدولة العثمانية على حد سواء، وهناك عوامل كثيرة ساعدت على توازن البناء، منها المبادرات الأهلية التي عملت على تقسيم الأراضي وهياكل البناء كما أن الأوقاف قد لعبت دوراً مهماً في تخطيط العمران وازدهاره، وهناك عوامل أخرى ساهمت إلى حد كبير في نمو البناء والحفاظ على طابعه المميز كتدخل السلطات المركزية والمحلية على حد سواء في نقل المدابغ والورش إلى خارج المدن وكان المقصود من ذلك الحفاظ على مظهر المدينة والتوسع في أحيائها[21].

و في دمشق تم تخطيط حي الميدان ومجموعة من الشوارع المتوازية على مساحة تبلغ حوالي ثلاثة هكتارات وسعة كل واحد منها بين خمسة وأربعة أمتار، وتوصل هذه الشوارع بشارعين رئيسيين ،كما تعين حدود قطع أرض متلاصقة يبلغ عرض كلٍ منها 40متراً في الجزء الشرقي و30متراً في الغربي[22].

رابعاً– توفير المياه:

تدخلت الإمبراطورية العثمانية في توجيه التطور العمراني في حلب،وعملت على خلق جو من الاستقرار، لذا فقد اهتمت بالمياه ونظافة المدينة، و أصدرت عدد من المراسيم منها:

- مرسوم عام 1742م الذي قضى بتوجيه إمدادات المياه في مدينة حلب،فقد أصدر السلطان قراراً بصيانة القنوات التي تغذي حي الكلاسة بمدينة حلب.

---

[20]) المصدر نفسه،163– د/عبير عرقاوي، التطور التاريخي لخان أسعد باشا العظم،ص381،وما بعدها.

[21]) أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ،168.

[22]) المصدر نفسه،97.

- ثم أصدر قراراً آخر بإصلاح أحد الأسبلة في المدينة.
- وصدر مرسوماً عام 1733م،بتشييد مذبح للمدينة.
- وأصدرت القرارات بتحسين أوضاع المدينة في عام 1739م،تحدث القرار الصادر من الأستانة بتوسيع ممرات المدينة المزدحمة وإصلاح الشوارع والأحياء وترميم الآثار وتجديد الحمامات وإنشاء خانات جديدة وترميم الخانات القديمة والاهتمام بالحدائق[23]. ومن المحتمل أن قرارات الدولة المركزية كانت أكبر من هذه الأمثلة التي سيقت من قبل ويظهر أن الخطوات التي اتخذت لتحسين مدينة حلب ذات الموقع الاستراتيجي المهم للدولة كان برعاية الأستانة بما في ذلك نقل المدابغ التي قامت بها الحكومة المحلية كان بمباركة السلطان.
- وقد شهدت مدينة حلب إنشاء مشروعات مياه،و أسندت مهمة متابعة تدفق المياه وإصلاح القنوات إلى القضاء،وتركت للقضاء صلاحيات واسعة للحفاظ عليها وذلك بما يمتلكه القضاء من أموال خصصت لتلك الأغراض- أموال الأوقاف- وتدخلت الحكومة المركزية في بعض الفترات الحرجة لسد العجز عن كاهل الحكومات المحلية .

وأظهر البشوات اهتماماً بالغاً في هذا الجانب فقاموا بصيانة القنوات وإصلاح الأسبلة، وقد عانت حلب من عدم قدرة القنوات القديمة على سد احتياجاتها وخاصة في الضاحية الشرقية للمدينة،إذلعب التوسع العمراني وزيادة السكان إلى عجز كبير في موارد المياه مما سبب اضطراباً في تلك الأحياء،فتدخلت الدولة لحل الإشكال وعملت على توسيع القنوات ومد أجزاء المدينة المختلفة بالمياه وتشييد عدد كبير من الأسبلة في مدينة حلب لسد حاجة السكان من المياه وتدل تلك المشروعات المهمة للدولة العثمانية على اهتمامها بمدينة حلب من أجل تزويد سكانها بالمياه اللازمة والدليل على تلك العناية أن الأسبلة في بداية القرن التاسع عشر بلغت في مدينة حلب وحدها(200سبيل) [24].

وفي دمشق كانت المياه تصلها من نهر بردى، والنهر يمر في الجزء الشمالي من المدينة،وكانت القنوات المتصلة به تحمل الماء إلى الأحياء عن طريق نظام متقن التوزيع،وكانت مشروعات المياه في دمشق تقع تحت سلطة القاضي[25].ومن أجل الحفاظ عليها تم تكليف موظفين لمتابعة صلاحية القنوات ومتابعة تدفق المياه إلى أحياء دمشق،وكانت المياه تسري بانتظام في أغلب أوقاتها إلا أنها لم تسلم من التخريب بسبب الاضطرابات أو العوامل

---

[23]) المصدر نفسه،162.

[24]) الحلاق:أحمد البديري، حوادث دمشق اليومية، تحقيق:د/أحمد عزت عبد الكريم،ط/1958م، ص224، 181،للأعوام 1753، 1759م- أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني،ص120.

[25]) أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني،ص119.

الطبيعية مثل الزلازل أو تدحرج الصخور التي كانت تسد تلك القنوات،فقد قطعت المياه عن دمشق في عام1753م لمدة ثلاثة أيام،وتسبب زلزال عام 1759م،في قطع المياه عن مدينة دمشق لمدة أحد عشر،يوماً،وفي تلك الحوادث العارضة كانت الحكومة المركزية تتدخل للحد من تدهور الوضع فعندما انقطعت المياه في عام 1752م، تدخل الوالي العثماني أسعد باشا لترميم القنوات التي تسبب خرابها بانقطاع المياه عن حي الشاغور[26].

خامساً– بناء المساجد:

حين أمر السلطان العثماني سليم خان الأول الملقب بـ (ياوز – الصاعقة) بعد فتحه دمشق ؛ ببناء مسجد و تكية و تربة فوق مرقد المتصوف الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الصوفي الأندلسي تكريماً له؛حيث لأن السلطان سليم كان شديد الإعجاب بآراء الشيخ محيي الدين الصوفية ،وعلى أي حال فقد كان المقصد الأساسي من عمل السلطان هو التقرب من أهالي مدينة دمشق بهذا الصرح الديني في سنة 923هجرية الموافق 1517 للميلاد[27] وسار خلفاء بني عثمان على منهجه في الاهتمام ببناء المساجد في كل ولايات السلطنة العثمانية.ونكتفي هنا بهذا النموذج ونحيل القارئ على المصادر والمراجع التي تناولت عمارة المساجد في العصر العثماني لأن مقام البحث لا يسمح بحصر كل ما عمر من مساجد في دمشق وحلب وهي مظهر رئيس من مظاهر حكم الدولة العثمانية .

سادساً– بناء المحطات على طرق الحجيج والقوافل التجارية:

تعد الطبقة الحاكمة في الدولة العثمانية من أبرز الطبقات الاجتماعية مساهمة في التطور العمراني،إذ تمتعت تلك الطبقة بصلاحيات واسعة،وقد شكل اتصالها بالحكومة المركزية أحد العوامل المؤثرة في توجيه البناء وازدهاره[28] .ونجد ذلك جلياً في تلك المنشآت العمرانية التي أقيمت على طرق القوافل التجارية والحجيج، ومن النماذج على ذلك:

1– القطيفة :وتقع القطيفة في إقليم القلمون على الطريق الذي يربط بين دمشق وحمص وكانت هذه المحطة في السابق وقفاً للبيمارستان النوري ولكنها خربت، وعندما تولى سنان باشا أمر دمشق في أيام الحكم العثماني بادر بعمارتها؛وذلك لأهميتها لقوافل الحجيج،ومن أهم المنشآت التي قام ببنائها جامع وتكية للخدمات العامة وتقديم الطعام،وخان للمسافرين،ورباط للنزلاء وحمام ،ودكاكين قدرت بعشرة [29].

---

[26]) المصدر نفسه،119.

[27]) ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان،ص376.

[28]) أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني،ص55.

[29]) ابن الجيعان،بدر الدين أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر بن عبد الغني ،القول المستطرف في سفر مولانا الملك الأشرف ،تحقيق:دعمر عبد السلام تدمر ،ط/1984م،طرابلس،ص80 – أحمد وصفي زكريا،الريف السوري – محافظة دمشق–

وذكرت بعض المصادر القطيفة وأهميتها كمحطة للقوافل فعند مرور كبريت[30] بها في عام 1629م وصفها بقوله:" روضة غناء،وغيضة حسناء كأنما قطفت من فردوس الجنة،وبها الخان الذي هو للواردين ...وهو الخان الذي لا يرى له عديل ولا يدانيه في محاسنه مثيل". وذكر الرحالة العثماني أوليا جلبي عام 1647م أن القطيفة من أوسع خانات الشام وأكثرها قدرة على استيعاب الواردين إليها بقوله:"خان القطيفة عظيم جداً حتى لو دخلته قافلة مؤلفة من عشرة آلاف رجل بخيلها وجمالها لوسعها وزاد"[31].

2- سعسع :ومن المحطات التي أنشئت بأوامر سلطانية من السلطان العثماني قرية سعسع وهي تبعد عن دمشق(40كم) -على طريق دمشق فلسطين مصر- وسبب إنشائها يعود إلى اعتداءات البدو المتكررة على قوافل الحجاج،فعندما بلغ السلطان العثماني تلك الأخبار من تقطع البدو ومنعهم للحجيج من الحج أمر واليه وقاضيه في دمشق بإقامة محطة للحماية في سعسع،وكان ذلك الأمر سنة 1581م،وقد دعا الأمر السلطاني السكان المحليين للسكنى في سعسع بشرط حفظ الأمن مقابل العفو عنهم من الضرائب ومن أهم المنشآت التي أقيمت في سعسع:جامع،وتكية للخدمات العامة وتقديم الطعام وبيوت لإقامة المسافرين ،ورباطان لنزلاء الصوفية ،ومجموعة من الدكاكين ،وحمام،وطاحون لطحن الغلال.

و بقيت سعسع حتى زلزال عام 1763م الذي ألحق بدمشق وضواحيها أضراراً بالغة ولكنها لم تندثر فقد ذكرها بعض الرحالة الذين زاروا الشام بعد هذا التاريخ،وأنها تقوم بالخدمات لنزلائها ويظهر أنها رممت بعد الزلزال[32].وكان الهدف في الأساس من قيام تلك المحطات الحفاظ على أمن القوافل وتقديم الخدمات لها.

المحور الثاني– العوامل الاجتماعية ودورها في تطور العمران .

وفي هذا المحور يتم عرض دور المجتمع في التطور العمراني، كما لعب الأهالي دوراً مهماً في حفظ الأمن، والتسامح الاجتماعي مع الجاليات غير المسلمة .

على الرغم من أن العوامل السياسية قد لعبت دوراً بارزاً في إنعاش العمران في حلب ودمشق ، إلا العوامل الاجتماعية قد كان لها دوراً بارزاً في النهضة الاقتصادية والأزدهار العمراني في هذه الحقبة الزمنية يعود إلى أصحاب العمل ورأس المال المحلي، من سكان تلك المدن والمقيمون بها والمرابطون على ترابها. فعلى كواهل هؤلاء

وصف طبوغرافي وتاريخي أثري عمراني اجتماعي زراعي للأقضية والنواحي والقرى العائدة إلى محافظة دمشق،ط/1955م،دمشق،ص198- د/محمد الأرنؤوط :معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر الميلادي،ط/1993م ،دار الحصاد ،دمشق،ص54.

[30]) هو محمد بن عبد الله الحسني الموسوي اشتهر بكبريت ،ومن أشهر كتبه (رحلة الشتاء والصيف).

[31]) كبريت:رحلة الشتاء والصيف،ط/بيروت،ص210.

[32]) الحلاق:حوادث دمشق اليومية ،ص233- أحمد الخالدي،رحلات في ديار الشام،ط/1946م،يافا،ص 50.،116.

قامت المنشآت الاقتصادية، فالمال ملك للتجار من المقيمين والوافدين ، والعمل والإنتاج لأهل البلد، وهم مقابل الجهد والعمل لا يتقاضون إلا أجراً زهيداً. وكانت مساهمات ذلك المجتمع في تلك الفترة واضحة للعيان.

ونستطيع القول بأن هناك عوامل عديدة قد لعبت أدواراً فاعلة في التنمية الباهرة في الحقبة العثمانية ولم تكن تقتصر على عامل بذاته بل ثمة عوامل اجتماعية وأمنية واقتصادية كان لها الدور نفسه في تلك التنمية، ويمكن عرض ذلك من خلال:

1- تنوع المجتمع في الدولة العثمانية: شكل المجتمع المتنوع في بلاد الشام أحد ركائز التنمية و الازدهار العمراني،وذلك بسبب اختلاف أنشطتهم فقد شهدت المدن الكبرى أنشطة متنوعة،وزادت هذه الأنشطة في عصر الدولة العثمانية،إذ أن اتساع مساحة الدولة وسهولة التنقل في أراضيها قد دفع أعداداً كبيرة من سكان الإمبراطورية العثمانية إلى التجول في ربوعها المختلفة،ومنها بلاد الشام،واستقرارها في مدينتي حلب ودمشق،فكانت مجموعات من البشر تنتقل إلى بلاد الشام إما بدافع التجارة أو التعلم أو الحج إلى الحرمين،إذ كانت بلاد الشام المنفذ المهم للدولة العثمانية في الوصول إلى الحجاز،وكانت بعض المجموعات المهاجرة تستقر في مدن الشام وتجلب معها مهاراتها وإمكاناتها المادية،فعملت تلك المجموعات على تنشيط الاقتصاد،وانعكس هذا النشاط على فن العمارة .

2- تسامح الإمبراطورية العثمانية مع الجاليات غير المسلمة:أدى هذا التسامح مع الجاليات غير المسلمة ورعاية مصالحها إلى ازدهار العمران وتطوره[33].

3- قوافل الحج ودورها في الازدهار العمراني :نشطت الدولة العثمانية وحكامها في استثمار موسم الحج،فعمل حكامها على تأمين الطرق وبناء المحطات، وخاصة في المدن التي تمر بها القوافل،ومن خلال ما قامت به أكدت قوتها وسلطتها السياسية والدينية من خلال الاهتمام بقوافل الحجيج وكانت ولاية دمشق من أهم الولايات التي اعتنت بتنمية المراكز الخدمية التي ساهمت بخدمة الحجاج وبذلت الدولة العثمانية أقصى اهتمامها فكان متولي دمشق يقوم بقيادة قافلة الحجاج بنفسه[34].

ورغم أن الحج كان مناسبة دينية إلا أنه تم استثماره للتبادل التجاري،فكانت القوافل التجارية تلازم الحجاج مستغلة الحماية العثمانية لقوافل الحجيج،وكان موسم الحج يدر دخلاً هائلاً على المدن التي تمر بها القوافل،ومن ومنها مدينة حلب التي حصلت على أرباح هائلة من إقامة الحجاج بها، وكانت دمشق أعظم مدن الشام استفادة حتى بنيانها الحضاري تأثر بتلك القوافل،ومن أجل مواكبة متطلبات قوافل الحجيج فقد أنشئت بضواحي

---

[33]) أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني،ص 41 ،44.

[34]) المصدر نفسه،ص38.

دمشق منطقة أطلق عليها (الميدان)، وتعتبر هذه المنطقة من أكبر المناطق التي أنشئت في العصر العثماني وشكلت ملتقى لقوافل الحجيج في الجهة الجنوبية من دمشق على طريق الحجاز والمناطق الزراعية باتجاه حوران[35].

4- عناية الدولة العثمانية والحكومات المحلية بالأمن: لعبت القوات الأمنية في سائر المدن الشامية – ومنها حلب ودمشق – أدواراً مهمة للحفاظ على الاستقرار والأمن،وكانت قوة الانكشارية هي الأكثر أهمية،إذ أن أغلب المهمات الأمنية كانت تقع على عاتقها، ومن أبرزها حماية مقرات الحكومة والولاة والتصدي لأي اضطرابات. . وسخرت الدولة العثمانية إمكاناتها و قوتها لتوطيد الأمن في بلاد الشام بشكل عام وحماية حدودها من الأخطار الخارجية،وخاصة الغزوات الصليبية.وقد ساهم الأمن الذي تمتعت به المدن الشامية – ومنها حلب ودمشق- في أغلب فتراتها في العهد العثماني،في تنشيط الجوانب الاقتصادية،فانتعشت التجارة والعمران على حد سواء، وظهرت مآثر الدولة العثمانية وقوتها في تلك المعالم المدنية والعسكرية،وكسبت بتلك الأعمال احترام جماهير المدن الشامية.

5- مساهمة المجتمع المحلي في حفظ الأمن:عملت الأحياء الدمشقية والحلبية على حفظ أمنها،فكونت مجاميع من الأحياء لحمايتها من أ ي هجوم،وكانت هذه المليشيات تقوم بمنع وقوع الجرائم في الحي،ومنع الغرباء من دخوله وخاصة في الليل.

6- التقسيمات الإدارية:ساعدت تقسيمات المدينة إلى أحياء في ضبط المخالفات وقيام التحريات في حالة وجود اضطرابات داخلية،ففي دمشق أرسل أسعد باشاعام 1746م إلى مشايخ الأحياء يأمرهم بالقبض على اللصوص وقطاع الطرق الموجودين في أحيائهم وإلا فرضت غرامات باهظة على تلك الأحياء، وهذه بدورها عملت على تحمل أهل الحي المسئولية، فلذلك كانت تلك الأحياء على درجة عالية من اليقظة حتى لا تقع تحت طائلة المساءلة والغرامة[36].

7- الاهتمام بنظافة المدن: اهتمت الدولة والسكان بنظافة المدن،ففي حلب كان أصحاب الحوانيت يدفعون أجور الكناسين والمكلفين بتنظيف السوق للحفاظ على مظهر المدينة وأسواقها،ومن أجل المحافظة على نقاء البضائع في الأسواق تم تكليف مجموعة من العمال عرفت بالرشاشين،كانت مهمتهم رش الشوارع بالماء لترطيب الجو مقابل أجر معلوم من كل تاجر[37].

---

[35]) أحمد البديري،حوادث دمشق اليومية،ص206- أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني،ص 40.

[36]) لنقاط السابقة يراجع،المحفوظات القومية السورية بدمشق،وأوامر سلطانية حلب،سجل (رقم 4)،ص217 ،218،رقم(448)،- أحمد البديري،حوادث دمشق اليومية،ص218.

[37]) أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني،ص111.

8- مواجهة الكوارث الطبيعية باستخدام مواد بناء مقاومة للكوارث وخاصة الحرائق:كانت الحرائق أكثر الكوارث فتكاً بالمدن،ويظهر أن تركيبة المباني في الشام قد منعت إلى حد كبير تلك الكوارث ويعود ذلك إلى نوعية البناء إذ كان أغلب بيوت الشام مبنية من الحجر والقرميد والطوب واللبن،وتعتبر تلك المواد ضعيفة الاشتعال على عكس البيوت التي كانت تصنع من مواد قابلة للاشتعال مثل الخشب وعلى الرغم من متانة البناء في دمشق فقد تعرضت دمشق لعدد من الحرائق في الأعوام (1640-41-72-73- 1711-12-13-1715م) [38] .

[38]) المصدر نفسه،ص144.

وفي الختام يمكن لهذا البحث المتواضع أن يصل إلى النتائج الآتية :

1. كان للاستقرار أثره الواضح في الازدهار العمراني في بلاد الشام في عهد الدولة العثمانية.
2. كان للرخاء الاقتصادي دورٌ في التغلب على العوامل المناخية في حلب ودمشق، إذ استخدم سكانها الحجارة التي جلبت من المناطق المجاورة أو استخدام مواد مقاومه للبرودة والحرائق مثل الطوب المحروق وغيرها من المواد.
3. ازدهار الصناعة في ضواحي مدينتي حلب ودمشق فتوسعت المدينتان خارج الأسوار.

المراجع :

- ابن طولون ،شمس الدين محمد بن على بن أحمد الصالحي، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، بعناية خليل منصور،دار الكتب العلمية – بيروت ، ص 378- د/حسن الضيقة ،الدولة العثمانية الثقافة والمجتمع والسلطة،ط/أولى،1997م،دار المنتخب العربي، بيروت – لبنان،ص17.
- نقلاً عن مقالة موقع نسيم الشام – مقالة جريدة الوسط الكويتية في 2012/8/17م والتكية السليمانية المعرفة marefa.org.
- نقلاً عن مقالة بموقع إدلب الأربعاء 10 آذار 2010م.
- نقلاً عن المديرية العامة للآثار والمتاحف دمشق .
- اندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر الهثماني،ترجمة لطيف فرج،ط/الأولى،دار الفكر ،القاهرة،ص36.
- نقلاً عن موقع خانات حلب
- أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ،190.
- المصدر نفسه،38.
- د/عبير عرقاوي،التطور التاريخي لخان أسعد باشا العظم، مجلة دمشق للعلوم الهندسية،المجلد الثاني عشر ،العدد الأول،2006م،ص375.
- أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ،192.
- المصدر نفسه،163- د/عبير عرقاوي، التطور التاريخي لخان أسعد باشا العظم،ص381،وما بعدها.
- أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ،168.
- الحلاق:أحمد البديري، حوادث دمشق اليومية، تحقيق:د/أحمد عزت عبد الكريم،ط/1958م، ص224،181،للأعوام 1753، 1759م- أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني،ص120.
- أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني،ص119.

- ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان،ص376.
- أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني،ص55.
- ابن الجيعان،بدر الدين أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر بن عبد الغني ،القول المستطرف في سفر مولانا الملك الأشرف ،تحقيق:دعمر عبد السلام تدمر ،ط/1984م،طرابلس،ص80 - أحمد وصفي زكريا،الريف السوري – محافظة دمشق- وصف طبوغرافي وتاريخي أثري عمراني اجتماعي زراعي للأقضية والنواحي والقرى العائدة إلى محافظة دمشق،ط/1955م،دمشق،ص198- د/محمد الأرنؤوط :معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر الميلادي،ط/1993م ،دار الحصاد ،دمشق،ص54.
- هو محمد بن عبد الله الحسني الموسوي اشتهر بكبريت ،ومن أشهر كتبه (رحلة الشتاء والصيف).
- كبريت:رحلة الشتاء والصيف،ط/بيروت،ص210.
- الحلاق:حوادث دمشق اليومية ،ص233- أحمد الخالدي،رحلات في ديار الشام،ط/1946م،يافا،ص 50.،116.
- أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني،ص 41 ،44.
- أحمد البديري،حوادث دمشق اليومية،ص206- أندريه ريمون ،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني،ص 40.